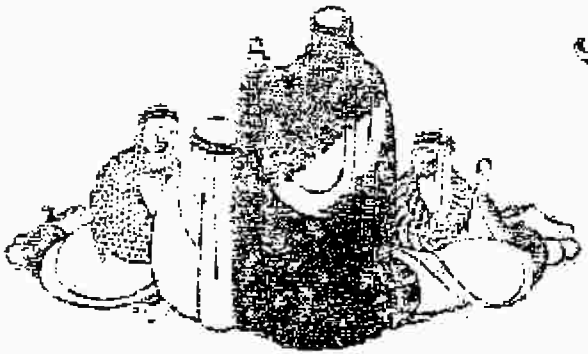

رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

— ٥ —

﴿ عالم الحيوان ﴾ وعالم الحيوان يبدي في اليمن كثرةً وروعةً غريبتين . فالجبال تحتوي على افراد قليلة من الضباع والذئاب ، وعلى اسراب كثيرة من القرود . وفيها كثير من الحشرات والهوام المؤذية كالافاعي والعقارب والزيلاوات السامة والبق . وفي تهامة اسراب كثيرة من الغزلان السارحة . واسم الفرد في اليمن (رباح) . على حين ان هذه الكلمة في اللغة تطلق على القرد الضخم[1] . والقرود في اليمن الوان عديدة . فمنها الاسود والاصفر والاحمر . وهي تسرح وتمرح مجتمعة بحيث لا يقل عدد السرب عن العشرات واحياناً عن المئات . وهي تعيش في المناطق ذات المياه ، فتسطو على الزروع والبقول وتتلفها ، ولكل سرب رئيس كبير الجثة يحكم في سربه حكم القائد في جيشه . ولما كان القرود جبناء وشديدي الاحساس يسيرون بحذر وانتباه كالجند المتخذ وسائل الحيطة في ارض معادية ، فانهم يضعون لكل سرب قرداً او قردين في الطليعة والساقة والجناحين الايمن والايسر . فاذا ظهر امام السرب السائر مانع ما في احدى الجهات المذكورة يصيح القرد الموظف في تلك الجهة ليقف السرب كله ويصغي الى مصدر الصوت . فاذا صاح القرد الموظف صيحة ثانية يطلق السرب بسرعة منهزماً نحو الجهة المقابلة الامينة . وعند الهزيمة يتخلى الصغار ظهور امهاتهم أو يتعلقوا حول بطونهن . والقرود قلما تتعرض للانسان ، ما لم يستفزها فترشقهُ حينئذٍ بالحجارة او بما يماثلها

(١) في معجم الحيوان لامين المعلوف ص ٩٧ « ان هذه اللفظة من أصل سامي بمعنى رب او سيد ، لانهم كانوا يعظمون القرد في اليمن كما كان يفعله قدماء المصريين »

اما الطيور الكواسر كالنسر والعقاب والصقر والحدأة والرخمة وغير الكواسر كالغراب والحمام والقمري والعصفور والشحرور والبلبل والهدهد والخطاف والقبرة والشقراق وغيرها فحدث ولا حرج من كثرة انواعها وأجناسها واختلاف اشكالها والوانها واصواتها وغرابة طيرانها حول المساكن وفوق الرؤوس بلا وجل ويعزى ذلك الى كراهة صيد الطير لدى اليمانيين ارباب المذهب الزيدي

﴿ الاديان ﴾ الدين العام في اليمن هو الاسلام وسكانه اما شيعة من اتباع مذهب زيد بن علي بن الحسين بن علي الذين يقولون بوجوب الامامة وتميزها في احدابناء بيت النبوة الحائز على الشروط الآتية ، ان يكون ذكراً حرًّا مجتهداً علويًّا فاطميًّا عادلاً سخيًّا ورعاً سليم العقل سليم الاطراف صاحب رأي مدبراً مقداماً فارساً . واما شيعة من اتباع مذهب محمد بن ادريس الشافعي الذين لا يقولون بحصر الامامة في آل البيت . وجميع سكان جبال اليمن الاعلى زيدية ، كما ان كل سكان جبال اليمن الاسفل والتهائم شافعية . والزيدية يؤلفون ثلث سكان اليمن بينما الشافعية يؤلفون الثلثين . لكن السيطرة في يومنا بيد الزيدية كما كانت ايضاً في اكثر العصور الماضية . وقد تقدم القول عن الفروق الملحوظة بين اتباع المذهبين من نواحي الاخلاق والعادات والحالات السياسية والادارية . وثمة في جبال قضاء حراز قليل من الاسماعيلية اتباع داعي الدعاة (سلطان البهرة) في الهند ويسمونهم مكرمين وفي الهند بهرة . وهم غير الاسماعيلية الذين يؤلمون آغا خان الزعيم الهندي المعروف واليهود يؤلفون عشر سكان اليمن ، وهم منتشرون في اكثر مدن اليمن وقراه ، يقيمون وحدهم في احياء منعزلة ويؤدون جزية ضئيلة لا تتجاوز الريالين لقاء أمن واطمئنان لا يرون نظيرهما في اي قطر آخر وهم مكلفون إرخاء العارضين ولبس ازياء خاصة ذات لون أسود او ما يماثله وعدم ركب الخيل وتقلد السلاح . وذلك لكي يميزوا عن المسلمين ولا يخل احد باطمئنانهم . وعلى الرغم من مظهرهم الدال على الخضوع والضعة فانهم اغنى حالاً من المسلمين المتكوبين بالبؤس والخمول . فمعظم الصناعات في اليمن في ايدي اليهود وكذا معظم التجارة وكل الصيرفة ، فهم الحاكمون في الحركة الاقتصادية

﴿ الطبقات ﴾ كغيرها حال الغريب في بلاد اليمن يشاهد اساليب الحياة وتقاليد المعيشة والاطوار والافكار ما زال على ما كانت عليه قبل بضعة قرون منها ان اليمانيين ما زالوا ينقسمون كما كانوا في عهود اجدادهم الغابرين الى طبقات عدة هي السادة والفقهاء والقضاة والنقباء والمشائخ والعقال والقبليين فهؤلاء علية القوم والمنظورين فيه . ويلي هؤلاء العوام وارباب الحرف كالحداد والتجار والجزار والبناء والزين والحمامي والقشاط والدوشان والقهوي والرعوي وعمال السوق . . . وأشالهم المعدودون من الخشارة في المجتمع اليماني

﴿ السادة ﴾ لا تطلق كلمة السيد في اليمن إلاَّ على المنتسبين لآل بيت الرسول (صلعم) ولا

يجوز استعمالها لغيرهم . والسادة في اليمن كثيرون ، تجدهم اينما ذهبت ، اسرهم معروفة وانسابهم محفوظة . وهم اسمى طبقات اليمن واوفرها احتراماً واعزازاً . وهم القاضون على عنان العقائد والميول والمسيرون للآراء والنزعات . وإذا صادف اليماني رفيعاً كان ام وضيعاً واحداً من هؤلاء السادة وإن صغر سنه ورق حاله يهوى على ركبتيه ويديه بالتقبيل . واذا ما التقى أحد هؤلاء السادة خطبة في مسجد او حادث جمعاً في منزل أو اذاع نشرة في البلاد يدعو لزعامته او لسرته لابد ان يشرع بالفخر والتمدح ، وانه من آل بيت الرسول المخصوصين بالتقديم والتكريم وقرناء الذكر الحكيم الذين ورد في وجوب محبتهم والتعلق باذيالهم كذا وكذا من الآيات والاحاديث ، كما يذكر مثلها في فضائل اليمن واهل اليمن ، واشهرها حديث (الايمان يماني والحكمة يمانية) . وكل الامارات والعمالات الرفيعة والمقامات والوظائف الدارة في اليمن هي للسادة بادىء ذي بدء مهما قلت معرفتهم وكفاءتهم وكل صدقات الفطر والهدايا والنذور الدينية في الاعياد والمواسم وغيرها من الاوقات تجبى لهم بها كثر مالهم وسمد حالهم . فتأمل بعد هذه الوجاهة والسيطرة الروحيتين الفائقتين كم يؤثر هؤلاء السادة في انهاض الشعب اليماني البائس الذي ركبوا منكبه منذ احد عشر قرناً لو تهيأت لهم شروط ذلك الانهاض من علم نافع وشعور قوي او وطني . والقاعدة عند السادة أن يصاهر بعضهم بعضاً . فالسيد لا يرغب في زواج ابنته الا من سيد . ولا يصبو ابن السيد للاقتران الا من « شريفة » وهو لقب بنات السادات وقد يقترن السيد ببنت غير شريفة ويكون ولده منها سيداً ، ولكن الشريفة اذا اقترنت بغير سيد لا يكون ولدها منه سيداً

***

(الفقهاء) هم شيوخ الدين المتضلعون والمشتغلون بالفقه وغيره من العلوم الشرعية الاسلامية ويكونون من غير السادة . والفقهاء ايضاً في نظر الشعب اليماني احترام يقرب لما للسادة وماذكرناه عن اولئك يشمل هؤلاء ايضاً في الجملة . (القضاة) هم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين في دوائر الحكومة اليمانية من غير السادة . (النقباء) هم اعقاب حكام بعض البلاد في ماضي الذين حالت دولتهم فانتقلت املاكهم الى بيت المال ، ولهؤلاء ايضاً قدر معروف (المشائخ) هم عمد القرى والاحياء وذوو الحول والطول فيها . والمشيخة تنتقل بالوراثة من الآباء الى الابناء (القبائل) طبقة توازي المشائخ بالقدر والنفوذ . وقد يكون السيد والشيخ قائلاً . (القبيلون) . القبيلي هو المعروف بالقروي او الفلاح في عامة الاقطار العربية . وقد دعي بذلك لان قروي اليمن وفلاحيه ما برحوا محتفظين بانسابهم واجتماعهم على هيئة قبائل وبطون وافخاذ . فهناك همدان وسنحان وعنس وحاشد وبكيل وارحب ونهم وبلحرث وغيرها من القبائل العربية القحطانية المعروفة من قبل الاسلام لا تزال هي والفروع العديدة التي تشعبت منها في العصور المتوسطة والاخيرة وتسمت باسماء شتى

كذي محمد وذي حسين وبني جبر وبني بهلول وبني الحارث والحدا وغيرها موجودة في اليمن على الحالة والفطرة التي تركها اجدادهم . فالقبيليون هم جمهرة الشعب اليماني ودهماؤه وخدام زرعه وضرعه وجنود سادته وحكامه وحملة دواعي بؤسه وشقائه يرهب جانبهم ويقام لهم وزن لانهم كانوا وما برحوا اتباع القاعدين واعوان الوائبين والخارجين

وقبيلو اليمن ليسوا من الاعراب الرحل سكان بيوت الشعر المعروفين في بقية الاقطار العربية ، حتى ان اليمن يكاد لا يعرف لهؤلاء اثراً لفقدان البراري والصحاري الصالحة لسرح الابل والنعم والحل والترحال بل هم من المتعلقين بمزارعهم ومحارثهم والقاطنين في قرى ودور حجرية في الجبال او في عرائش وأكواخ من الشجر والقش في التهائم . والقبائل في تهامة وفي الجبال كانوا وما برحوا تحت قيود زعمائهم والعاملين على أمرهم ينقادون لهم انقياداً أعمى وأول عنصر الزعامة في القرى يبدأ بالمقال والمشائخ . فكل من هؤلاء في قريته صاحب الزعامة الزمنية والقابض على زمام الآراء والحقوق . وينقاد هؤلاء الى زعيم كبير يدعونه « شيخ المشائخ » يسيطر على قرى عديدة تختلف قلتها وكثرتها بحسب قوته . ثم ان كلاً من هؤلاء ينقاد الى الرئيس الاكبر الذي بيده أمر القبيلة كلها . اما الزعامة الروحية والسيطرة العليا الزمنية الادارية والمالية والسياسية فهي بيد الائمة الذين لم ينقطع تعاقبهم منذ أواخر القرن الثالث الهجري رغم الدول التي تداولت الحكم في اليمن . والامامة قد لا تبقى في يد سيد واحد بل ينازعه فيها غيره احياناً من الحائزين على الشروط الاربعة عشر . وقعود الائمة وسيطرتهم حائل جداً . فالامام بحسب المذهب الزيدي رئيس ديني واميرالمؤمنين وخليفة المسلمين . وقد غالى الائمة في فرض طاعتهم وتقديسهم وزوروا احاديث ووضعوا دساتير قاسية جداً . فالصبي اليافع اول ما يتعلمه في الكتاب ان (طاعة الامام من طاعة الله ومعصية الامام من معصية الله) وان (لا يد فوق يد الامام) وان (ليس للرعية إلا ما طابت به نفس الامام) ، وغير ذلك من الاقوال الكفيلة للافواه والقاطعة لنياط القلوب مهما اساء الائمة واخطأوا بعضهم بشر على كل حال

الالقاب — ومن غرائب اليمن ان الالقاب الفخمة التي كانت تستعمل في عصور انحطاط دول الاسلام ما زال لها في اليمن حكم قائم لا يحيدون عنها في مراسلهم ومخاطبهم . فكل سيد او قاضي علامة وكل فقيه فهامة وكل من كان ابناً للامام فهو سيف الاسلام ، وهذا لقب لا ينازع ابناء الامام فيه احد . وكل من كان اسمه أحمد فهو صفي الاسلام وينادونه يا الصفي ، ومن كان اسمه محمداً فهو عز الاسلام وينادونه يا المعزي ومن كان اسمه عليًّا فهو جمال الاسلام وينادونه يا الجمالي . . وهكذا يا الفخري ويا الشرفي ... الخ